مخطوطات شمال الصحراء
و الاستشراق الفرنسي في الجزائر

د.أعراب عبد الحميد

أستاذ محاضر – رئيس قسم المكتبات

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية – جامعة الجزائر

مُقدّمة :

بحكم ثرواتها الهامة وموقعها الإستراتيجي بين أوروبا و أفريقيا و آسيا ظلت الجزائر منذ القديم موضوع اهتمام الشعوب الشرقية و الغربية حيث تعرضت لغزوات متعاقبة بداية بالفينيقيين و القرطاجيين من 1100 إلى 147 قبل الميلاد إلى غاية الاحتلال الفرنسي من 1830 إلى 1962 مرورا بالاحتلال الروماني والوندالي والبزنطي ثم الفتح الإسلامي والحماية التركية مما جعل الجزائر وبصورة شاملة منطقة شمال إفريقيا مسرحا تصارعت فيه مختلف شعوب آسيا و أوروبا .

وكان هذا الصراع مصحوبا بشكل أو بآخر بتفاعل مختلف الآراء والأفكار والعادات و لتقاليد مما أفضى إلى تراكم ثقافي عبر مختلف الأزمنة والعصور. لقد انعكس هذا التفاعل الثقافي المستمر في الزمان والمكان على الإنتاج الفكري عبر مختلف الكتابات التي ساهمت في إنشاء مكتبات هامة كان لها الأثر البالغ في احتواء الفكر والمعارف الإنسانية .

1-المخطوطات الجزائرية عبر التاريخ :

تمتد جذور الحركة الفكرية في الجزائر إلى العصور القديمة حيث عرفت نوميديا علماء أجلاء مثل الملك هيمبصال الثاني الذي ألف كتابا حول أصل شعوب إفريقيا وحفيده يوبا الثاني(1) الذي كان

يلقب بملك العلماء نظرا لما أنتجه من مؤلفات علمية التي أثرى بها المكتبة (2) المعتبرة التي ورثها عن جده هيمبصال .

إبليوس(3) اشتهر بدوره بثقافة واسعة حيث ألف كتبا في مختلف حقول المعرفة كالطب والفيزياء والرياضيات والفلك والنبات. القديس أغسطين (4) اسم لامع آخر ساهم بمؤلفاته في إثراء الفكر الإنساني ، من بين كتاباته الاعترافات ومدينة الله . إضافة إلى ما كتب جمع العديد من المخطوطات التي شكلت مكتبة ثرية(5) .

مدينة تيمقاد القديمة المستعمرة الرومانية التي أسست سنة 100 بعد الميلاد كانت لها مكتبة في بالغ الأهمية تقدر بحوالي 23000 مخطوطا في مختلف العلوم و المعارف(6) .

يعتبر انتشار الإسلام في منطقة شمال إفريقيا منعطفا جديدا في التاريخ الثقافي للجزائر حيث ظهرت مراكز إشعاع ثقافي في كل من تاهرت وبجاية والتوات وتلمسان وقسنطينة والجزائر ومازونة وغيرها من المدن الأخرى التي حملت وحافظت على مشعل الحضارة الإسلامية والازدهار الفكري وذلك خلال مختلف الدول والمملكات الأمازيغية .

حتى الفترة العثمانية التي يرى البعض أنها مرحلة الركود الثقافي ولاهتمام الأتراك بالجانب العسكري فإن الكتب و المكتبات موجودة فيها بكثرة (7) علما أن الأتراك حتى وأن لم يهتموا كثيرا بالإنتاج الفكري فإنهم على الأقل حافظوا على ما ورثوه من الدول الإسلامية الأخرى التي تعاقبت على حكم منطقة المغرب الكبير .

2- الحياة الثقافية في إيالة الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي :

مقارنة بما كان يجري في بجاية وتلمسان ومازونة وتاهرت التي كانت عواصم إشعاع فكري وثقافي ، فإن الحكم التركي كان يمثل فترة الانحطاط الفكري رغم تفوقه العسكري .

أثناء القرون الثلاثة للتواجد التركي في الجزائر كانت السلطات الفكرية و الروحية تتحكم فيها المؤسسات الدينية التي حافظت على الهوية الجزائرية و على تراثها الثقافي المتراكم عبر تاريخ الدول الإسلامية في منطقة المغرب الإسلامي . بفضل هذه المؤسسات الدينية انتشر التعليم في كل مناطق الأيالة حيث شهد الفرنسيون أنفسهم أنه يوجد في الجزائر آنذاك الكثير من المدارس التي تعلم القراءة و الكتابة للتلاميذ الذين تزيد أعمارهم عن السنة الخامسة (8) .

في نفس السياق يقول النقيب Rozet أنه يوجد في مدينة الجزائر مائة مدرسة عامة و خاصة قبيل التدخل الفرنسي في 1830. كما يرى أن" مستوى تعليم الجزائريين يمكن أن يكون أعلى من مستوى

الفرنسيين حيث أن كل الرجال يحسنون القراءة و الكتابة وشيء من الحساب، كما يوجد الكثير من المدارس العامة في أيالة الجزائر أين يتعلم الأطفال ابتداء من السنة الرابعةً (9).

يقول الجنرال Daumas في تقريره حول نفس الموضوع : " إن التعليم الأساسي كان منتشرا في الجزائر أكثر مما كنا نتصور حيث أوضحت علاقاتنا مع أهالي العمالات الثلاث (وهران الجزائر وقسنطينة) أن متوسط الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة كان على الأقل يساوي المتوسط الفرنسي" (10).

إلى جانب التربية والتعليم فإن الكتاب يحتل مكانة لا يستهان بها حيث يوجد في حي القصبة شارعا خاصا ببيع و شراء و نسخ المخطوطات منها نسخ من القرآن الكريم ذات التجليد الفاخر وكذا كتب الحديث والفقه (11). كانت القيصرية التي هدمت بأمر من الجنرال كلوز يل(12) تحتوي على محلات النساخ وأكثرهم من امهر الخطاطين الذين يقومون يوميا بنسخ المخطوطات وسور من القرآن الكريم (13).

في عمالة قسنطينة يقول المستشرق الفرنسي L. Adrien Berbrugger : " أن التعليم أكثر انتشارا والدليل على ذلك الكمية الكبيرة من المخطوطات الموجودة في عاصمة أحمد باي"(14). تلمسان هي الأخرى رغم انحطاطها تحت الحكم التركي إلا أنها بقيت واحدة من بين العواصم الثقافية و الفكرية للمغرب الإسلامي أين توجد الكتب بكثرة (15).

3- مصدر المخطوطات الجزائرية :

قبل الاحتلال الفرنسي في 1830 كانت الجزائر تحتوي على كميات هائلة من المخطوطات التي تزخر بها خزائن المساجد والزوايا والمدارس ومكتبات الخواص . لقد تراكمت هذه المخطوطات عبر الزمان و تكونت الخزائن من مختلف المصادر نذكر منها :

1-مخطوطات ورثت من العواصم الثقافية مثل تلمسان وبجاية وتاهرت وغيرها أين تكونت وتطورت خزائن ثرية بالمخطوطات .

2-بعد سقوط غرناطة كان جلاء المسلمين إلى المدن الساحلية الجزائرية مصحوبا بنقل كميات معتبرة من المخطوطات .

3-إلى جانب مخطوطات المسلمين النازحين من الأندلس كانت المخطوطات تأتي من الدول الإسلامية الأخرى وعلى الأخص من البقاع المقدسة أثناء تأدية الجزائريين لشعائر الحج كما تأتي أيضا من تركيا ومصر والمغرب وغيرها .

4- التأليف

5- النسخ

6- الشراء

7-الوقف

4- المخطوطات الجزائرية تحت الاستعمار الفرنسي :

كانت المخطوطات الجزائرية محفوظة بنوع من القداسة في مكتبات و خزائن المؤسسات الدينية كما كانت مجمعة بنوع من الغيرة في مكتبات الخواص إلى غاية احتلال مدينة الجزائر في 1830 حيث تشتت هذه المخطوطات عن طريق التدمير والنهب والمصادرة والهجرة الخ .

1.4- التدمير :

لقد تعرض الكثير من المخطوطات الجزائرية إلى التدمير أثناء الحملات الاستعمارية الفرنسية حيث تذكرنا صور التخريب نفس الإجراءات التي قامت بها الجيوش الألمانية ضد كتب المتثقفين الفرنسيين أنفسهم أثناء الحرب العالمية الثانية (16) بقول L.A. Berbrugger الذي كان يرافق الجيوش الفرنسية في حملاتها العسكرية : " إن حملاتنا العسكرية دمرت الجزء الأكبر من الكتب و قضت فعلا على أغلبية المدارس . إن بقايا هذه البحوث الأدبية المنقذة من التدمير من طرف أصدقاء العلم مودعة في مكتبة مدينة الجزائر . كان فإمكاننا أن نجمع الكثير لو أن كل القادة العسكريين كانوا يدركون أن هناك نوع من المجد في الحفاظ على معالم المعرفة مهما كانت الحروف التي كتبت بها و عارضوا أن تشعل نيـــران المعسكرات بالعديد من المخطوطات العربية المأخوذة عن طريق الغزو من المدن المحتلة " .

في قسنطينة بالإضافة إلى المكتبات العامة الملحقة بالمساجد والمدارس توجد الكتب في أغلبية المنازل والكثير من هذه المخطوطات تعرض للتدمير من جراء الحصار وما تلاه من هجوم على المدينة (81) في نفس السياق كتب المؤرخ Sédillot في الطبعة الثانية لكتابه تاريخ العرب العام (الجزء الأول، 1877، ص. 438) : "نحن الفرنسيين بعد احتلال مدينة قسنطينة أحرقنا مثل البرابرة الحقيقيين المخطوطات العربية الموجودة في المدينة" (19) . شهادة أخرى للطبيب C. Sédillot الذي حظر احتلال مدينة قسنطينة ووصف عملية النهب (20) الذي تعرضت له المدينة حيث يقول أنه تشكل نوع من السوق التي تباع أو تقايض فيها المخطوطات إلى جانب الأشياء الأخرى بغض النظر عن تلك المخطوطات المدمرة أثناء الهجوم.

إن صور التدمير للكتب و المكتبات لم تقتصر على مدينة قسنطينة بل نجدها في كل المدن الجزائرية التي تعرضت للاحتلال . ففي ورقلة مثلا أين كانت مكتبات ثرية فإن الاضطرابات الناجمة عن ثورة البطل محمد بن عبد الله و ثورة بوشوشة صاحبها تشتت وتدمير عدد كبير من الكتب (21).

2.4 الهجرة الجماعية :

شكل آخر من تشتت وضياع المخطوطات الجزائرية متعلق بهجرة العلماء الجزائريين إلى البلدان المجاورة فارين من الاضطهاد الاستعماري و حاملين معهم ما لديهم من كتب ومخطوطات. ففي تلمسان مثلا بعد حملة 1836 أدى استفزاز و ظلم الاحتلال الفرنسي إلى هروب عدد كبير من العائلات إلى المملكة المغربية (22) حاملة معها كتبها وأثناء الطريق تعرضت القوافل إلى عملية النهب ضاع أثرها أغلبية المخطوطات .

أثناء هجرتي 1842 و1911 قامت العديد من العائلات التلمسانية بدفن كتبها في منازلها وعند العودة واستخراج تلك المخطوطات كان معظمها عرضة للتلف بسبب الرطوبة والفطريات (23) .

3.4 المصادرة :

إلى جانب أشكال التدمير المختلفة التي تعرضت لها المخطوطات الجزائرية فإن بعض المجموعات صودرت من قبل السلطات العسكرية الفرنسية مثلما حدث لمكتبة الأمير عبد القادر عندما تعرضت الزمالة للهجم يوم 16 ماي 1843 من قبل قوات الدوق أومال حيث تعرضت زمالة الأمير إلى النهب بما في ذلك مكتبته المتنقلة الشهيرة التي تقدر بـــ 5000 مخطوطا عربيا ثمينا و نادرا و فاخر التجليد (24).

تعرضت كتب شيخ الحداد لنفس المصير عندما أعلن الحرب المقدسة ضد الاستعمار الفرنسي والتي أفضت إلى ثورة 1871. إن بعض كتب الشيخ الحداد التي صادرتها القوات الاستعمارية أدرجت ضمن مجموعة مخطوطات المكتبة الوطنية (25) و الباقية ضاعت و إلى الأبد .

عائلة لالة فاطمة خاصة سي طاهر أوطيب كان يطالب بدون انقطاع استرجاع أملاكه المنقولة بما فيها 160 مخطوطا عربيا في بالغ الأهمية (26).

في منطقة القبائل أين تكون الزوايا شبكة حقيقية (27) فإن القرى التي يسكنها الطلبة كانت توجد بها مجموعات من المخطوطات (28) فأعطيت أوامر عسكرية للجنود الفرنسيين لتسليم المخطوطات التي عثروا عليها أثناء الحملات التفتيشية للمكتب العسكري وكانت السلطات العسكرية تعد الجنود بجوائز تشجيعية لمن يعثر على هذه المخطوطات كما تهدد الذين يخالفون هذه الأوامر بعقوبات

شديدة (29). حسب Gabriel Esquer ، كان في حوزة الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في مختلف الحملات العسكرية خاصة حملة قسنطينة مخطوطات احتفظوا بها و عند رجوعهم إلى فرنسا سلم البعض من هذه المخطوطات إلى المكتبات الفرنسية واحتفظ بالباقي عند بعض العائلات كذكرى للحرب (30).

إن المخطوطات الجزائرية لا توجد في فرنسا فحسب بل توجد في أغلبية دول العالم مثل اسبانيا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها (31) .

في سنة 1972 نشر محمد بن عبد الكريم فهرسا خاصا بالمخطوطات الجزائرية المحفوظة في مكتبات اسطنبول والذي أحصى فيه 421 مخطوطا منها 200 لمؤلفين جزائريين . أما الميادين التي تغطيها هذه المخطوطات فهي موزعة على النحو التالي : (32)

الميدان	عدد المخطوطات
تفسير القرآن	03
الحديث	11
العقيدة	35
التصوف	75
الحكمة	111
الأدب	186
المجموع	**421**

4.4- النهب

إن آخر حلقة من مسلسل النهب الذي تعرضت له المخطوطات الجزائرية يعود تاريخها إلى بداية الستينيات مباشرة بعد استقلال الجزائر . حسب بعض المصادر الموثوق منها فإن مخطوطات مكتبة جامعة الجزائر لم تحرق أثناء تفجير المكتبة يوم 7 جوان 1962 بل نقلت إلى فرنسا في 7 سبتمبر 1961 (33) إلا أن مكان وجودها لا يزال مجهولا. بعد إعلان استقلال الجزائر مباشرة سارع قناصو التحف الفنية بما فيها الكتب النادرة و الثمينة إلى الجزائر مقبلين من كل حدب و صوب(34) ، الجامعات الأمريكية الكبرى كانت في الموعد حيث جمع مبعوثوها كل ما وقع بين أيديهم إلى غاية صائفة 1965 (35) . أن تدخل هواة التحف الفنية الأجانب أنشأ سوقا جد نشطة أين بيع التراث الجزائري المكتوب بأبخص الأثمان .

إلى جانب المخطوطات فإن مجموعات المكتبات و مراكز الأرشيف تعرضت هي الأخرى لعمليات النهب و التدمير من قبل المنظمة العسكرية السرية بالإضافة إلى 150 طنا من الأرشيف (36) التي نقلت إلى فرنسا قبيل الاستقلال و المبرر في ذلك أن فرنسا الاستعمارية تعتبر أن هذه الوثائق تمثل "السيادة الاستعمارية " (37)

5- الاستشراق الفرنسي والدراسات العربية بالجزائر :

يعود تاريخ الدراسات العربية للمستشرقين الفرنسيين بالجزائر إلى احتلال مدينة الجزائر في 1830 حيث صاحبت كوكبة من المترجمين (38) القوات العسكرية التي قادها الجنرال دي بورمون وذلك على غرار حملة نابوليون بونابرت على مصر

إن أول وثيقة صدرت باللغة العربية من قبل المستشرقين الفرنسيين تتمثل في ترجمة بيان الاستسلام (39) الذي وجهه الجنرال دي بورمون إلى داي الجزائر. و منذ ذلك التاريخ ظهرت الحاجة الماسة إلى الاهتمام بالدراسات العربية التي تضلعت فيها كوكبة من الفرنسيين الذين عرفوا بالمعربين الجزائريين. إن الدور الذي قام به هؤلاء المعربون يندرج في إطار المخطط الاستعماري الذي كان يرمي إلى فهم المجتمع الجزائري من جميع الزوايا قصد جمع القدر الكافي من المعطيات و المعلومات التي تساعد السلطات العسكرية على بسط نفوذها على الشعب الجزائري وبالتالي تحقيق مآربها الاستعمارية .

لقد أهتم المستشرقون الفرنسيون بشتى الميادين منها الترجمة و الدين واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الخ (40) .

إن التمكن من استغلال التراث الجزائري المكتوب كان يستدعي الاهتمام بالدرجة الأولى بتعليم اللغة العربية التي تعتبر المفتاح الوحيد الذي يضمن التخاطب والتفاهم والاتصال بين السلطات الاستعمارية والأهالي . ففي سنة 1838 شرع بجدية في تدريس اللغة العربية تحت إشراف Bresnier وإن كانت المحاولات الأولى بعد الاحتلال مباشرة . إلى جانب تعليم اللغة العربية ظهرت الحاجة إلى إنشاء أول مكتبة استعمارية في مدينة الجزائر في 1835 والتي تحولت فيما بعد إلى مكتبة وطنية .

6- الأبحاث والدراسات الخاصة بمخطوطات شمال الصحراء :

إلى جانب الدراسات العربية التي اهتم بها المثقفون الفرنسيون مدنيين كانوا أو عسكريين فإن موضوع المخطوطات شكل عناية خاصة للمعربين الفرنسيين المتواجدين بالجزائر منذ 1830 حيث قاموا بأبحاث قصد تحديد وجرد واستغلال كل الوثائق التي يمكن أن تحمل في طياتها معطيات أو معلومات تاريخية (41) يمكن أن توظف لصالح المشروع الاستعماري و اختراق المجتمع الجزائري ونشر الثقافة

الفرنسية على حساب مقومات الشعب الجزائري . بالفعل أعطيت تعليمات (42) لإعداد فهارس لمجموعات المخطوطات المتواجدة عبر التراب الوطني و استجاب العديد من الباحثين المدنيين و العسكريين الذين قاموا بأبحاث و دراسات في شتى الميادين نحاول في هذه الورقة أن نتطرق إلى أولائك المستشرقين الذين اهتموا بموضوع المخطوطات الخاصة بشمال الصحراء و ساهموا في جمعها و فهرستها و ترجمتها و استغلالها .

1.6- روني باسيه *René Basset* (43)

إضافة إلى كتاباته المتعددة والمتمثلة في التقارير العلمية، تاريخ الديانات، الاثنوغرافيا والفلكلور، التاريخ، الجغرافيا والآثار الإفريقية، اللغات الإفريقية من عربية وأمازيغية وإثيوبية إهتم رونيه باسي باستكشاف بعض المكتبات الجزائرية في منطقة الصحراء (44).

في شهر مارس 1885 كلف من قبل الحاكم العام للجزائر بدراسة اللهجات الأمازيغية في واد مزاب ووادي ريغ . وفي هذا الموضوع قام إميل ماسكواري بنشر التقريرين (45) الأولين الذين أرسلهما باسيه من مليكة و ورجلة إلى الحاكم العام .

في ورقلة تحصل باسيه عن طريق إحدى الطلبة على نسخة لقاموس الأمازيغية إلى جانب مجموعة من النصوص . لقد سمحت له زيارة مكتبات هذه المدينة بإعداد قائمة في حدود ثلاث أو أربع مائة مجلدا منها تراجم شيوخ سدراتة وعدة نسخ لانتشار الإسلام في إفريقيا في القرن السابع لميلاد المسيح (46)

أما وضعية مخطوطات ورجلة فهي متردية إلى درجة أنه ليس من السهل الاستفادة منها الأمر الذي صعب عمل رونيه باسي الذي كتب حول هذا الموضوع : " هذا الأمر يستوجب سنة كاملة لتنظيم هذا الشتات: الوقت والإمكانيات تنقصني. وسط ساحة جلست في ركن بيت من الطين لا تصله أشعة الشمس أين قمت بفرز أولي للمجلدات التي توضع أمامي في قفف وهكذا استطعت أن أعد قائمة مخطوطات بني إبراهيم (47).

إن الاهتمام الذي أولاه رونيه باسي للمخطوطات العربية بصفة خاصة تدل عليه كتاباته المتعددة منها: المخطوطات العربية لزاوية الهامل (48) ، المخطوطات العربية لمكتبات زوايا عين ماضي و تيماسين وورجلة وعجاجة (49) ، المخطوطات العربية لباش آغا الجلفة (50) ، مخطوطات مكتبات وادي مزاب إلى جانب الكتابات الأخرى حول المخطوطات التي نشرت في دوريات مهمة خاصة المجلة الأسيوية ومجلة المراسلة الإفريقية.

6. 2 – دي كلا سونتي – موتيلينسكي A. de Calassanti - Motylinski (51) :

على غرار حملة مصر (52) ، أدركت سلطات الاحتلال الفرنسي ضرورة إنشاء مدرسة لإعداد وتكوين مترجمين في الجزائر للتمكن من مخاطبة الأهالي . يعد موتيلينسكي واحدا من هؤلاء المترجمين العسكريين والذي اهتم بالدراسة والبحث في مجال المخطوطات وبخاصة الكتب الإباضية .

في 1883 عندما كان مترجما عسكريا في منطقة غرداية قدم إلى القائد العسكري الأعلى للمنطقة تقريرا (53) يقول فيه : "عند وصولي إلى غرداية اتصلت مباشرة ببعض الطلبة الميزابيين الذين ارتأيت أنه بإمكانهم إفادتي بمعلومات دقيقة فيما يخص كتب المنطقة .

بفضل أحد طلبة مليكة الحاج أحمد بن داود الذي أعرت له أنا شخصيا بعض الكتب المطبوعة باللغة العربية، قمت بالاتصالات الأولية و عن طريقه تحصلت على معظم المخطوطات التي تندرج في الفهرس الذي ابعث لكم اليوم نسخة منه "

يحتوي هذا الفهرس وصفا ببليوغرافيا لثلاثة عشر مخطوطا إلى جانب العناوين وأسماء المؤلفين بالعربية والفرنسية كما يحتوي الوصف على تحليل موجز لتحديد طبيعة المخطوط، أهميته وقيمته التاريخية والعلمية .

فيما يخص اقتناء هذه المخطوطات يقول موتيلينسكي :" لا يوجد حاليا من بين هذه المخطوطات ما هو للبيع ربما هناك في المستقبل إمكانية اقتناء بعض المخطوطات ذات أهمية قليلة نسبيا والتي تعالج مواضيع فقهية مثل بعض الأجزاء المتفرقة من كتاب ديوان المشايخ أرقام 4-5-7-8" .

وبما أن أهل ميزاب متمسكون بهذه المخطوطات التي لديها قيمة كبيرة عندهم بحكم أن معظمها أملاك وقفية يتوارثها الأحفاد عن الأجداد (54) لم يبق أمام موتيلينسكي سوى عملية النسخ التي يسمح بها أصحاب هذه المخطوطات .

وبالفعل كلف موتيلينسكي طالبين لنسخ الكتب مقابل 3.25 فرنك فرنسي قديم للكراس الواحد الذي يحتوي على عشر أوراق (24 سطرا في كل ورقة) .

إضافة إلى المخطوطات الواردة في الفهرس الذي أرسله إلى القائد الأعلى لمنطقة غرداية والذي يمثل الجزء الأول جمع موتيلينسكي مخطوطات أخرى تشكل الجزء الثاني (55) للفهرس .

إلى جانب ما سلف ذكره قام موتيلينسكي بترجمة فهرس الشيخ أبي القاسم بن إبراهيم البرادي الذي يحتوي على أثنين و ثمانين كتابا للإباضيين في مختلف الأزمنة (56).

6 . 3- إميل ماسكوري Emile Masqueray : (57)

إن مساهمة إميل ماسكوري في ميدان المخطوطات العربية تكمن خاصة في الزيارة التي قام بها إلى وادي ميزاب في 05 ماي 1878 . تندرج هذه الرحلة في المهمة الأثرية التي طلبها ماسكو ري من وزير التربية والحاكم العام بالجزائر (58) والتي وافقت عليها السلطات المعنية سنة 1875 (59).

الهدف من هذه المهمة هو استكشاف منطقتي الأوراس و وادي ميزاب قصد جمع الوثائق الخاصة باللسانيات والأثنوغرافيا والآثار. بعد أن مكث سنتين في منطقة الأوراس أين قام بعملية استكشافية للآثار الرومانية بتيمقاد اتجه في 14 أفريل 1878 إلى غرداية ، بني يزجن ، مليكة ، بونورة ثم العطف (60). أثناء إقامته بوادي ميزاب عمل ماسكوري كل ما في وسعه للوصول إلى جمع الوثائق التي تخص موضوع بحثه رغم العراقيل التي واجهها من طرف وزير التربية الذي رفض له إعانة مالية إضافية تقدر بست مائة فرنك لإتمام عملية نسخ بعض المخطوطات المهمة من جانب ، و من جنب آخر تمسك أصحاب الخزائن بمخطوطاتهم و صعوبة إقناعهم للاطلاع عليها.

لقد عبر ماسكوري عن جزء من هذه الصعوبات بالعبارات التالية : "استقبلت ببرودة وأوهمت بوعود لم تنفذ ، كنت أنتظر أن طلبة ميزاب تجتمع قريبا في زاوية سيدي عبد الرحمان لتتفق ضدي وكنت أتساءل عن أي كلام سحري يمكن أن يفتح لي الكنز الذي سيغلق بابه الثالث مثل البابين الآخرين . قيل لي في غرداية : " تعرفون ما نعرف عن تشريعنا : أنه مستمد من القرآن ؛ و القرآن بين أيديكم" ؛ في بني يزجن : "كتبنا التاريخية هي ملكيتنا الشخصية " (61)

بعد ما فهم وتأكد من تمسك طلبة وادي ميزاب بمخطوطاتهم وبالتالي لا يمكن له في أي حال من الأحوال أن يتحصل عليها بطريقة عادية ومباشرة عمد ماسكوري إلى الحيلة حيث استغل المشاحنة بين طلبة مختلف المدن، و بالفعل استطاع بدهاء (62) أن يتحصل من طلبة مليكة على ما رفض له من قبل طلبة غرداية وبني بزجن وهذا بفضل ذكائه ومعرفته للغات العربية والأمازيغية وكذا تاريخ الإسلام بعامة وتاريخ وادي ميزاب بخاصة. وبمجرد إقناع طلبة مليكة فتحت له كل الأبواب واستجاب له بقية طلبة المدن الأخرى ثم شرع في البحث عن الكتابات الإباضية . وبعد الإطلاع على بعض الكتب التقى بقطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش (63) ببني يزجن ثم انتقل إلى ملكية و بونورة وغرداية.

في رسالته المؤرخة في 28 جوان 1878 والتي بعثها من مدينة الجزائر إلى أمين جمعية الجغرافيا Henri Duveyrier قدم ماسكوري جردا لكل الوثائق التي جمعها في وادي ميزاب (64) وقال في رسالته: "رجعت من وادي ميزاب أين قضيت ما يقرب من شهرين ولم أغادر إلا بعد إنذار سري لطلبة غرداية " .

إن العمل الذي قام به ماسكوري في وادي ميزاب كان بمساعدة ثماني طلاب منهم ست نساخ ، مترجم و مفسر . أما فيما يخص مصير هذه الوثائق فلقد التزم ماسكوري بتقديمها بعد استغلالها إلى المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

6 . 4- ج. شاخت J. Shacht :

كان ج. شاخت من بين الذين اهتموا بالمخطوطات العربية وبخاصة الإباضية (65). في ديسمبر 1952 قام هو الآخر بزيارة لوادي ميزاب والذي لم يتلق الصعوبات التي واجهها المستشرقون الذين زاروا المنطقة قبله مثل Motylinski و Masqueray و De Sachau و Smogorzewski حيث يقول في إحدى مقالاته (66): "بعد بضعة أيام من الملاحظة الحذرة وبعد اقتناعهم من الطابع الهين لبحوثي فتح لي علماء وادي ميزاب كل الأبواب حيث سمحوا لي بالدخول إلى مجتمعهم و بيوتهم و مكتباتهم ".

سمحت هذه الزيارة لشاخت بإعداد فهرس (67) يحتوي على 151 كتابا بين مخطوط و مطبوع موزعة حسب التصنيف التالي :

الموضوع	عدد الكتب
تفسير و قراءات	05
حديث و سيرة	03
أصول الفقه	02
الكتب الفقهية الهامة	33
فقه : مسائل دقيقة	26
العقيدة و الفلسفة	32
الجدل و الدعوة	14
العبادات	18
التاريخ	13

6. 5- مساهـــمـــة العسكـــريـــن:

إن مساهمة العسكريين في الحياة الفكرية للجزائر المستعمرة لا تقل أهمية عن مساهمة المدنيين نظرا لما حققته نخبة من الضباط المهتمين بالبحث والاكتشافات العلمية. من بين هؤلاء الضباط نذكر على

سبيل المثال لا الحصر العقيد Carbuccia وحفرياته الأثرية في لامبيز؛ Duvivier والنقوش اللاتينية؛ النقيب Delmare والمخطوطات القديمة ؛ البحوث حول النبات والحيوانات للنقيبين Durrieu و Loche الضباط Pellissier في ميدان التاريخ الخ... (68).

في ميدان المخطوطات أعطيت أوامر لكل الضباط و الجنود للاهتمام وجمع كل الوثائق التي لها قيمة تاريخية . في هذا الموضوع يقول المقدم Laperrine القائد العسكري الأعلى للواحات الصحراوية في إحدى مراسلاته (69) الموجهة إلى الحاكم العام للجزائر : " إن سكان الواحات الذين اكتسبوا الثقة شيئا فشيئا شرعوا في إخراج أوراقهم القديمة والتي فيها ما هو جد مهم و فيها حتى ما هو مسلي، منها وثيقة يعود إلى حوالي 1604 للميلاد تشير إلى رحلة التجار الإنجليز من طرابلس إلى توات والأخرى تصف بدقة حصار أدرار من قبل البرابرة قبل 150 سنة الخ".

حسب المقدم Laperrine كان الضابط المترجم Martin يهتم كثيرا بالبحث عن هذه المخطوطات التي تكتسي أهمية بالغة بالنسبة لعمله المتمثل في تاريخ الواحات وكانت مصدرا لكتاب نشره تحت عنوان : تاريخ الواحات الصحراوية.

الخـــــاتمة :

إن الدور الذي قام به المستشرقون الفرنسيون في الجزائر في ميدان المخطوطات لا يمكن أن ينكره أحد ، فعن سبيل المثال لا الحصر لا يزال فهرس فانيان المرجع الأساسي في مجال المخطوطات العربية في الجزائر وذلك بعد أكثر من قرن من الزمن هذا من جانب ، ومن جانب آخر ينبغي أن ينظر إلى عمل هؤلاء المستشرقين على أنه غاية في حد ذاتها لأنه من المعقد أن نفصل بين عمل هؤلاء والمشروع الاستعماري الاستيطاني باعتبار أن التراث الجزائري المخطوط كان يمثل المصدر الأساسي بل الوحيد الذي سمح للسلطات الاستعمارية أن تفهم التركيبة الاثنوغرافية و الاجتماعية والثقافية للشعب الجزائري عبر التاريخ وعلى هذا الأساس بنت خططها الاستعمارية الهادفة إلي القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية و بالتالي بسط نفوذها على البلاد والعباد.

الهـــوامش

(1) ولد عام 52 قبل الميلاد وهو ابن يوبا الأول البطل الذي قارع الرومان في معارك بطولية قبل أن يهزمه يوليوس قيصر في سنة 46 قبل الميلاد .

نشأ يوبا الثاني في بيئة أهلته إلى الاهتمام بالعلم والمعرفة بدل السياسة إلا أن الظروف فرضت عليه السياسة حيث عين ملكا سنة 25 قبل الميلاد و تزوج من كليوباترة سيلين ابنة كليوباترة ملكة مصر والجنرال الروماني أنطوان .

إلى جانب ازدهار الزراعة والتجارة و العمران كانت مدينة أيول (شرشال الحالية) عاصمة المملكة مقصدا لأهل العلم والمعرفة والحكمة حيث شهد بلاطه تفاعل حقيقي بين الحضارات الفينيقية والإغريقية والرومانية والمصرية الفرعونية .

إن اهتمام يوبا الثاني بالعلم والعلماء و تفتحه عل الحضارات الأخرى وإتقانه لمختلف اللغات كالبونيقية والإغريقية واللاتينية جعل منه عالما كبيرا استشهد به الكتاب الإغريق و الرومان في العديد من كتاباتهم .

كتب يوبا الثاني في مواضيع شتى حيث ألف في التاريخ والحضارة والمسرح والموسيقى والرسم والنحو والنبات . اشتهر خلال حكمه كعالم بدل اشتهاره كحاكم .

(2) شنيتي، محمد البشير.- لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة .
في: الإنسان ، عدد 2، 1983، ص.22 .

(3) ولد سنة 125 م بمدينة مداوروش بالشرق الجزائري . اطلع على التيارات الفكرية والأدبية في عصره إثرى رحلاته إلى إيطاليا واليونان وآسيا الصغرى .

(4) القديس أغسطين (354-434) ولد بمدينة سوق أهراس بالشرق الجزائري ، وكان أسقف مدينة عنابة ،عمل على نشر المسيحية، كان خطيبا و كاتبا بارعا.

(5) Bailly, J.L. A - Notices historiques sur les bibliothèques anciennes et modernes, p. 17.

(6) عبد الحميد ، أعراب .- مكتبة تيمقاد القديمة.
في : حوليات جامعة الجزائر ، العدد التاسع ، الجزء الأول ، أفريل 1995، ص ص. 54-63.

(7) سعد الله ، أبو القاسم .- تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، ص. 286.

(8) Emerit, Marcel.- L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830.
In: Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine , t.1, janvier - mars 1954 , p. 199.

(9) Rozet , M. (capitaine).- Voyage dans la Régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française, t.2, p.75 .

(10) Colonna , Fanny .- Le Système d'enseignement de l'Algérie coloniale.
In : European Journal of Sociology, tome 13, men,1972,p.201.

(11) Boyer, Pierre .- La Vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, p. 60.

(12) حمدان ، خوجة .- المرآة ، ص.237 .(النسخة باللغة الفرنسية).

(13) Gautier, Théophile .- Voyage pittoresque en Algérie (1845), p.254.

(14) Berbrugger , L.A .- Algérie historique pittoresque et monumentale...,vol. 3, 4e partie , p.18

(15) Cour, Auguste .- Medersa de Tlemcen , p.7

(16) Schlumberger, Jean .- Massacre d'innocents (76-81) .

In : Epreuve dans l'ombre .- Paris : Groupe Parisien de l'Imprimerie Clandestine, MCMXLVI , p. 80 .

(17) Berbrugger, L.A.- op. cit., pp. 78-79.

(18) Ibid. p .18

(19) Laloë, Francis .- A propos de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabes : les manuscrits arabes de Constantine .
In : R. A. vol .66, 1925, p.101

(20) Sedillot, c. (Docteur) .- Campagne de Constantine , p. 251.

(21) Basset, René .- Les Manuscrits arabes des bibliothèques de zaouias de 'in Madhi et Temacin, de Ouargla et de 'Adjadja.
In : B.C.A., vol. 3, 1885, p.241.

(22) Cour, Auguste .- Medersa de Tlemcen , p. 7.

(23) Ibid.

(24) Churchill, Charles - Henri.- La Vie de Abd-el-Kader, p.235.

(25) Fagnan, E.- Catalogue général des manuscrits.- Tome XVIII : Alger, p.111

(26) Robin, (colonel) .- Notes et documents concernant l'insurrection de 1956-1897 de la grande Kabylie .
In: R.A, n° 44, p. 361.

(27) Boyer, Pierre .- L'Evolution de l'Algérie médiane (ancien département d'Alger) de 1830 à 1956,p.74

(28) Robin (colonel), op. cit. p. 224

(29) Ibid.

(30) Laloë, Francis, op. cit., p.107

(31) بوعياد ، محمود .- التراث الوطني المكتوب و طرق إحيائه.
في: الثقافة ، السنة الأولى ، العدد الثاني ،1971، ص.74.

(32) بن عبد الكريم ، محمد .- مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول . - بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1972، ص.7

(33) الدجيلي ، عبد الكريم .- ملاحظات حول الخزائن المخطوطة في تونس و الجزائر و المغرب .
في : المورد، الجزء الثالث ، العدد الرابع ، 1974 ، ص.299

(34) Planche, Jean- louis .- l'Incroyable affaire des archives d'Algérie, p. 11.
In : Les Nouvelles littéraires, nov.- déc. 1981,p.10-12

(35) Ibid.

(36) Boyer, Pierre .- Les Archives rapatriées, p. 62
In : Itinéraire chroniques et documents

(37) Ibid., p 67.

(38) لقد ذكر هؤلاء المترجمون في كتاب شارل فيرو تحت عنوان : المترجمون العسكريون بإفريقيا (Les interprètes de l'armée d'Afrique)

(39) ترجم البيان قبل تحرك القوات العسكرية نحو مدينة الجزائر وقام بترجمة النص إلى العربية Jean-Charles Zaccar بمساعدة المستشرق Bianchi و Sylvestre de Sacy.

(40) لقد قام Henri Massé بعمل مهم نشره في العدد 74 لسنة 1933 للمجلة الإفريقية تحت عنوان : الدراسات العربية في الجزائر : 1830-1930 ، حيث ذكر المؤلف الجهود التي قام بها الفرنسيون المعربون مع إدراج ببليوغرافيا جد مهمة لدراساتهم .

(41) رسالة رقم 189 للجنرال Loysel قائد منطقة الجزائر و التي أرسلها إلى الحاكم العام بتاريخ 14 ماي 1884 و المتضمنة الأمر بإرسال نسخة من فهرس المخطوطات الإباضية.

(42) Basset , René.- Les Manuscrits arabes du Bach -Agha de Djelfa .
In : B.C.A., t.2, 1884 , p.363

(43) من مواليد 1855 بفرنسا اهتم مبكرا بالاستشراق حيث أنكب على دراسة اللغة العربية وهو في مقاعد الدراسة . اشتغل من 1873 إلى 1880 في مدرسة اللغات الشرقية ومدرسة الدراسات العليا . تقلد في الجزائر مناصب عدة وألف العديد من الكتب حول مواضيع شتى.

(44) Massé,Henri.- Les Etudes arabes en Algérie (1830-1930)
In: Revue africaine, n° 74, année 1933, p. 235.

(45) نشر التقريران في الجزء الثالث من سنة 1885 لمجلة المراسلة الإفريقي ص ص.149-151.

(46) Masqueray , Emile .- Mission de M. Basset dans le M'zab et à Ouargla
In: B.C.A , t.III, 1885, p.151.

(47) Basset, René.- Les Manuscrits arabes des bibliothèques des Zaouias de,' Ain Madhi et Temacin, de Ourgla et de 'Adjadja .
In : B.C.A ,t .3 ,1885, p .212.

(48) Basset, René .- Les Manuscrits arabes de la Zaouiyah d'el Hamel.
In : Giornale Della Socieate Asiatica Italiana, tome X, 1897, p. 43-97.

(49) Basset, René .- Les Manuscrits arabes des bibliothèques des Zaouia de Ain madhi ..., op. cit.

(50) Basset, René .- Les Manuscrits arabes du Bachagha de Djelfa .- Alger : Imprimerie de l'Association Ouvrière P. Fontana et Cie, 1884

(51) يصفه هنري ماسي " بعالم من الطراز العالي " . كان مترجما عسكريا لدى القائد العسكري الأعلى ببوسعادة أين عين في هذا المنصب ابتداء من 15 جانفي 1875 ثم انتقل إلى غرداية أين اهتم بتاريخ وادي ميزاب.

في 1887 عين مديرا لمدرسة قسنطينة أين أصبح فيما بعد أستاذا للغة العربية . نشر نصوصا وترجمات لبعض المؤلفين العرب واستمر في بحوثه إلى غاية 1907 تاريخ وفاته .

(52) أثناء حملته كون بونا برت في 9 ماي 1798 لجنة العلوم و الفنون بتولون لانتقاء كوكبة من العلماء لمرافقته أثناء حملته قصد دراسة التاريخ و الجغرافيا و النبات و غيرها في مصر. تتكون هذه الكوكبة من مختصين في شتى الميادين يتصدرهم المستشرقون كمترجمين عسكريين .

(53) تقرير بتاريخ 26 أفريل 1883، أرسل إلى القائد العسكري الأعلى لمنطقة غرداية حول موضوع مخطوطات وادي ميزاب .- 5 صفحات .

في : A.O.M (Aix -en - Provence), G.G.A., boite n° 22 H 14

(54) بعض هذه الكتب تحمل في الصفحة الأولى عبارات وقفية مع التأكيد على عدم السماح بإخراج الكتاب من المدينة التي نسخ فيها أول مرة .

(55) شيء وعد به موتيلينسكي القائد الأعلى لمنطقة غرداية و لا ندري ما طبيعة و لا عدد هذه الكتب .

(56) Motylinski, A. de C.- Bibliographie du M'zab : les livres de la secte Ibadite In : B.C.A., 4° année, tome III, 1885, pp.15.35

(57) ولد بفرنسا سنة 1843 بعد دراسات في التاريخ و الجغرافيا و تعيينه أستاذ في التعليم الثانوي بفرنسا ، اختار سنة 1872 ثانوية مدينة الجزائر . كلف سنة 1882 بالدراسات الأولية التي أفضت إلى إنشاء مدارس في منطقة القبائل الكبرى . بعد تنظيم التعليم العالي بالجزائر سنة 1880 عين في مدرسة الآداب بمدينة الجزائر كأستاذ لتاريخ وفي نفس الوقت مديرا للمدرسة إلى غاية وفاته سنة 1894. اهتم باللهجات الأمازيغية وكذا عادات وتقاليد الأهالي إلى جانب مساهماته في الجغرافيا الصحراوية حيث نشر في الموضوع مجموعة من الكتب و مقالات الدوريات .

(58) Masqueray, Emile .- Chronique d'Abou Zakaria , p. 1.

(59) Ould Brahim , Ouahmi .- Emile Masqueray au M'zab à la recherche des livres Ibadites . In : Etudes et documents berbères , N°9, p. 6.

(60)- Ibid. p. 8.

(61)- Masqueray, Emile , op. Cit., p. IX .

(62)- Ould Brahim , Ouahmi , op. Cit. , p.10.

(63) هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن إسماعيل الطفيش ، ولد في 1818/1236 ببني يزجن أين توفي سنة 1914/1332 ، لقب بقطب الأئمة وهو من عائلة العلماء كان شيخا لحلقة العزابة وإماما في مسجد المدينة التي ولد فيها أين كان يقدم دروسا في الدين وفي مستوى رفيع مما جذب العديد من الطلبة الوافدين من وادي ميزاب و كل البقاع التي يوجد بها الإباضيون. كتاباته تزيد عن 300 في شتى ميادين المعرفة : قراءات، حديث وسيرة، أصول الفقه، آداب، تاريخ ... الخ.

(64) فيما يخص طبيعة هذه الوثائق أنض: ولد إبراهيم ، وهمي ، مرجع سابق ، ص. 14

(65) Sezgin , Fuat .- Geschichte des arabichen shrifttums , p. 58.

(66) Shacht , J .- Bibliohèque et manuscrits Ibadites. In : R. A , vol. 100 , 1956 , p. 376.

(67) هذا الفهرس خاص بكتب علوم الدين و تاريخ بني ميزاب المحفوظة في مكتبة القطب الشيخ محمد بن يوسف الطفيش مع ملحق لمكتبة الغناء ببني يزجن. أعد الفهرس انطلاقا من جزء من فهرس الشيخ محمد بن يوسف الطفيش الذي يحتوي على كتب الخزانتين المذكورتين . قام شاخت بتحليل القائمة مع إضافات من عنده ثم صنف الكتب إلى تسعة أقسام .

(68) Jjulien, Charles–André .- Histoire de l'Algérie contemporaine , tome 1 : conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871) , p. 306.

(69) المراسلة المؤرخة في 24 فبراير 1906 حول موضوع الوثائق الأثرية و المخطوطات.

في: A.O.M. (Aix- en- Provence), n° 10 H 74